

العُمريّات أقدم مساجد صدر الإسلام

■ ياسر محمد أبو نقطة

الزائر لمدن جنوب سورية يأسره جمال عمارتها القديمة، المضممة بعبق التاريخ، المزدانة بألوان الطبيعة، الممتّعة بأعرق قصص الأجداد، ممن تركوا وراءهم أبنية ومخططات لا تزال إلى اليوم نقف باحترام لروعة الفن الأصيل الذي مارسوه فيها، وشادته أيديهم.

وتُعدُّ المساجد القديمة من أبرز ما يمكن للمرء أن يشاهده في كل مكان، وخاصةً المساجد العائدة لصدر الإسلام، وقوامها أبنية حجرية من البازلت القاسي، مع قناطر وأقواس وقبب حجرية، وفناءات مكشوفة وبعضها مسقوف بالقرميد الأحمر، إنه فن قائم بذاته أنجزته يد الأجداد على مدى عصور قديمة للغاية، دعت الحاجة لتوسعتها كل فترة، ومدّها بعناصر القوة والاستمرار. إن بعض تلك الجوامع كانت حقاً عبارة عن أبنية وثنية تُعبّد فيها آلهة الرومان واليونان، قبل أن تتحول مع مجيء الإسلام إلى مساجد يذكر فيها اسم الله، إن أقدمها يعود للخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند زيارته للمنطقة ونسبت بأسمائها إليه، وهي تقع في أربع مدن

■ باحث وإعلامي - درعا، سورية.



رئيسة هي: درعا - بصرى الشام، ازرع - صلخد، مع واحد مشابه لها كثيراً يقع في منطقة اللجاة موقع مسيكة، وبعض آخر منها قديم بني في عصور لاحقة كالعصر المملوكي والعثماني؛ لكنها سُميت عمرية تيمناً بالخليفة الفاروق، ولكونها أقيمت بطريقة مشابهة لمساجد سيدنا عمر؛ حيث إنها بازلتية وتضم الأجنحة الرئيسة المعروفة: الحرم والصحن والمئذنة. يبيد أنّ من المؤرخين مَنْ يذهب إلى أنّ هذه الجوامع إنما نُسبت إلى عمر بن الخطّاب، لأنّ الفتح للمدينة أو البلدة تمّ في عهده، بغضّ النظر عن زمان بنائها.

جامع درعا أموي مصغّر:

بني مسجد درعا في مكان ديني مقدس منذ عصور قديمة، فكان معبداً وثنياً في العصر الروماني (أقدم دلائل موجودة حتى الآن)، ثم تحول البناء إلى كنيسة مسيحية في العصر البيزنطي،

لكن الجامع بني في الجهة الشمالية من الكنيسة من دون أن يزيلها، وقد استعين فقط ببعض العناصر من بنائها المتهدم في عمارة هذا الجامع الكبير، إضافة إلى كميات كبيرة من الحجارة والأعمدة والعناصر الأخرى المنحوتة التي جمعت من المنطقة المحيطة به.

تمّ تسجيل الجامع في السجلات الرسمية العثمانية كملك عام تعود ملكيته للدولة في بداية القرن التاسع عشر من قِبَل والي سورية على إثر زيارته لمدينة درعا، ثم تمّ تسجيله كبناء أثري في سجلات المديرية العامة للآثار والمتاحف في وزارة الثقافة رقم /72/أ، تاريخ 1968/6/1م¹.

رُمّم المسجد مرات عدة أبرزها ترميمات القرن السابع الهجري بدلالة النصّ الكتابي الموجود على حجر وسط الرواق الشرقي لصحن الجامع ومفادها: «بسم الله الرحمن الرحيم: إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر، أمر بعمارة هذا الرواق المبارك مولانا السلطان الناصر صلاح الدنيا والدين

Across the Jordan- Gottlib, Shumacher, London, 1886, P. 163.

- 1

يوسف بن محمد غازي أمير المؤمنين في ولاية الأمير الناصر صلاح الدين عثمان بن علي الكتكي، وذلك في سنة إحدى وخمسين وستماية»¹.

والقرن التاسع عشر، حيث تمّ ترميم وتجهيز البهو الجنوبي للصلاة، قبل أن يخضع لترميمات شاملة في منتصف القرن العشرين. والجدير ذكره أن الصلوات لم تنقطع في الجامع على الإطلاق².

يتألف المسجد من قسمين رئيسيين هما الحرم (المصلّى) والصحن، إضافة للمئذنة الكبيرة، وهو بمخططه هذا يطابق إلى حد كبير المسجد الأموي بدمشق بل أشبه ما يكون بصورة مصغرة عنه³.

بني مسجد درعا في مكان ديني مقدس منذ عصور قديمة، فكان معبداً وثنياً في العصر الروماني (أقدم دلائل موجودة حتى الآن)، ثم تحول البناء إلى كنيسة مسيحية في العصر البيزنطي

الصحن: عبارة عن باحة فسيحة مستطيلة الشكل بأرضية مبلطة بالحجر المنحوت تفتح عليها ثلاث أروقة ورابع يدخل بتشكيل الجدار الشمالي للحرم، قوام الشمالي منها عدة أقواس مرتكزة على صفيين من الأعمدة يحوي الواحد منها ثمانية أعمدة.

الرواق الشرقي: يتألف من عدة أقواس تقوم على صفيين من الأعمدة يصل عددها إلى أربعة في كل صف مع وجود كتفين وعمودين إضافيين في الجهتين الشمالية والجنوبية، وذلك

للمساعدة بحمل كتلة السقف الثقيلة، والذي قوامه مداميك حجرية طويلة مرصوفة بعضها إلى جانب بعض، حيث يرتكز كل منها على ميازين حجرية صغيرة من كل جانب. الرواقان الغربي والجنوبي مغلقان على عكس الشمالي والشرقي المفتوحين، والسبب دخول هذين الرواقين في جسم البناء. يحوي الرواق الشرقي لوحة كتابة عربية تتضمن آيات قرآنية. للصحن ثلاث بوابات رئيسية: الأولى: في الغرب حيث يضطر الداخل للنزول عبر درج

1- هذا النص لا يزال يوجد إلى اليوم في المكان نفسه.

2- درعا مدينة المدائن، خليل المقداد، دمشق، دار عكرمة، 1998م، ص 177.

3- أضاير دائرة آثار درعا.



تحت أقواس متقاطعة ترتكز على أعمدة وأكتاف، هذا المدخل رُمّم جداره الخارجي ليصبح المدخل الرئيس للصحن والمسجد عامة. البوابة الشمالية مشابهة للغربية ويمر الداخل منها تحت قوسين من الحجر الكلسي الأبيض.

البوابة الثالثة: يتمّ الدخول منها من دون ملاحظة أي أقواس، أعمدة الصحن ذات أحجام مختلفة ومتنوعة السمك بارتفاع واحد وطرز هندسية أخرى إضافة إلى وجود بعض قواعد الأعمدة وضعت مكان التاج.

الحرم: وهو مكان إقامة الصلاة عبارة عن قاعة مستطيلة الشكل يقطعها صفان من الأعمدة موازية لجدار القبلة، يحوي الواحد منها ثمانية أعمدة مع وجود أربعة أكتاف في منتصف الحرم تماماً.

تشكل هذه الأعمدة ثلاثة أجنحة موازية لجدار القبلة، تيجان الأعمدة دورية وأيونية كورنثية، وطرز أخرى تحمل أقواساً رشيقة فوقها تمتد من غرب إلى شرق، إضافة إلى ستة أقواس موجودة باتجاه شمال - جنوب متعامدة مع جدار القبلة، وهي ممتدة على نسقين: ثلاثة أقواس في كل نسق تشكل جناحاً رئيساً يعامد جهة القبلة، وهو ما يسمى عادة المجاز. يتميز المسجد بواجهة عالية تطل على الصحن من جهة الجنوب، تبرز منها عضادتان كبيرتان إلى الأمام، يتوسّط الواجهة المذكورة باب كبير في المنتصف أربعة أمتار يعلوه قوس جميل، يحوي الحرم عدداً من النوافذ في القسم العلوي من الجدران، المحراب: عبارة عن تجويف على شكل خزانة جدارية.

المئذنة: شكلها مربع، عريضة من الأسفل تتناقص باتجاه الأعلى يزيد ارتفاعها على عشرين متراً، لها شرفتان في قسمها العلوي، يوجد وسطها درج حجري يلتف تصاعداً مع ملاحظة فتحات للتهوية والإنارة، ويمكن من خلال الشرفة العلوية مشاهدة مدينة درعا بكاملها مع بعض السهول المحيطة.

لا يزال جامع درعا يلعب ذات الدور المهم منذ بنائه وحتى اليوم، حيث يقع في وسط درعا البلد، ويشاهد من مسافات بعيدة؛ لأن المكان الذي بُني عليه مرتفع عما حوله، ومن خلال الإطلالة على مئذنته يمكن مشاهدة القرى والمدن المحيطة بدرعا، أهالي درعا يحبون الصلاة فيه، وتراهم

يقصدونه من مختلف أنحاء المدينة التي توسعت مؤخراً، مرةً في الأسبوع على الأقل خاصةً يوم الجمعة حيث يعج بالمصلين والزائرين¹.

جامع بصرى نموذج معماري فريد:

أروقة من كافة الاتجاهات، تشرف على مصطبة مركزية مرتفعة، مع وجود سقف هرمي ترفعه وكتلة السقف أعمدة رشيقة، سمات معمارية جعلت من المسجد العمري في مدينة بصرى التاريخية صرحاً أثرياً متميزاً. أُقيم المسجد فوق أنقاض معبد وثني قديم، وشيّد إلى الشرق منه حمام منجك، فيه عمودان يحويان كتابات يونانية، وثالث يتضمن كتابة لاتينية، وفي داخله كتابات ونقوش نبطية وعربية تؤكد أهمية المكان.

للجامع ميزات فريدة نجدها تتمحور في:

- 1- إنه واحد من أقدم المساجد في العالم الإسلامي، ولا يزال محافظاً على أصوله المعمارية الأولى.
- 2- ينتمي إلى المساجد ذات المخطط الهندسي ذي الأروقة والساحة المكشوفة، ومنها المسجد الأموي في دمشق، ومسجد عمرو بن العاص في فسطاط القاهرة.
- 3- يوجد في منطقة أثرية مهمة في مدينة بصرى على بعد مسافة قصيرة جداً من صروح من عصور مختلفة من أبرزها: حمام منجك المملوكي، دير الراهب بحيرا من الفترة البيزنطية، المسرح الفني والسوق المركزية من العصر الروماني².

مراحل ترميم المسجد

نظراً للعناية الكبيرة للخلفاء الأمويين بالمنطقة، والتزايد الملحوظ في إقبال السكان على اعتناق الدين الجديد، فقد طرأت على المسجد توسعة

1- هذه الشروحات وضعناها لأول مرة عام 1995 عند زيارتنا للمسجد أول مرة.

2- مجلة العمران، المرحوم سليمان المقداد محافظ الآثار في سورية الجنوبية، دمشق وزارة البلديات، العددان 33-34، 1970، ص 75.



بأمر من الخليفة يزيد الثاني عام 101هـ/720-721م، وتم الانتهاء منها في عام 102هـ، وقد تأكد ذلك من خلال نص كتابي دُون بالخط الكوفي / الأموي، أنموذج الوسط ذكر فيه التاريخ.

وفي عهد الخليفة مروان الثاني 127-132هـ شهد الجامع عملية ترميم وصيانة، وقد تأكد ذلك من خلال نص كتب بالخط الكوفي الأموي، طراز الوسط أيضاً نقش على استقامة فوق ثلاث كتل حجرية نصبت في الواجهة الشرقية جاء فيه: ((بسم الله الرحمن الرحيم، مما أمر به الأمير عثمان بن الحكم أعز الله نصره من سنة ثمانية وعشرين ومائة للهجرة)).

ثم جاءت المرحلة التالية من التوسعة والتي تعدّ الأوسع، وكانت في زمن أبي منور كمشتكين وبتأكيد النص الكتابي المنقوش بالخط الكوفي المتطور فوق حجر بازلي مستطيل وجد في الواجهة الشرقية من جدار المسجد وهذا نصه:

((بسم الله الرحمن الرحيم: أمر بتجديد هذا المسجد الجامع المبارك بعد نقضه الأمير الأجل السيد الكبير المخلص عز الدين ربيع الإسلام أمين المؤمنين رغبة في ثواب الله تعالى وغضرائه من أيام مولانا الملك ظهير الدين طغتكين أتاك سيف أمير المؤمنين في شهور سنة ست وخمسائة)).

ورمّم كذلك على يد يحيى بن علي همام، من خلال نص بالخط النسخي الأيوبي وجد فوق الجدار الشمالي في الواجهة الغربية هذا ما جاء فيه: ((جدد عمارة هذا الصحن المبارك العبد الفقير إلى رحمة ربه الحاج الضعيف يحيى بن علي بن همام رحمه الله تعالى في ولاية... أدام الله توفيقه في سنة ثمانى عشرة وستمائة)).

ورمّم أيضاً ومن خلال شاهد كتابي في قاعدة المئذنة جاء فيه: ((صنعه الأستاذ عبيد بن صمصام المصري رحم الله من ترحم عليه وعلى والديه وجميع المسلمين))¹.

1- بصرى عاصمة الأنباط، خليل المقداد، دمشق، دار عكرمة، 2004م، ص 230.

وفي سبعينات القرن الماضي أعيد بناء الرواق الغربي بصورة تتفق مع أسلوب بنائه في القرن الثاني عشر، وكان هذا الرواق مهدوماً بكامله، يميّز المسجد بمئذنة مربعة جميلة تعود بتاريخها إلى القرن الثاني عشر الميلادي عندما بلغ المسجد ذروة توسعه.

**لجامع بصرى قبة لطيفة
مع ثمانية أبواب تؤدي
إلى المساكن والأسواق
الشعبية، مما يدل على
زخم الحياة الاقتصادية
في مدينة بصرى عاصمة
الأنباط والغساسنة**

في أثناء قيام المديرية العامة للآثار والمتاحف بترميم جدرانه ظهرت مجموعة كتابات ونقوش عربية كانت تحيط بجدران المصلّى وهي محفورة على الجص فيها آيات قرآنية ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إلى آخر الآية وآية الكرسي، ويرى الباحث سوفاجيه أن الكتابات المذكورة تلك تعود للقرن الثاني عشر، وكان لأعمال الترميم التي أجرتها المديرية العامة للآثار والمتاحف أهمية كبيرة؛ إذ إنها

حرصت على إعادة رونقها القديم، تجلّى ذلك في المصلّى وثلاثة أروقة لم يبقَ منها سوى قواعد الأعمدة التي كانت ترفع الأقواس، فرمم المصلّى المكون من أعمدة رخامية مختلفة الطراز منها الدوري والأيوبي الكورنثي، والتي تحمل أقواساً مسقوفة بمداميك حجرية طويلة استبدلت بإسمنت مسلح.

في الصحن الداخلي فوارة كانت تعلوها قبة جميلة وللجامع ثمانية أبواب تؤدي إلى المساكن والأسواق المجاورة، وهذا مؤشر على اتساع مدينة بصرى وازدهاراً للتجارة فيها، وقد حجب تراكم الأنقاض نصف الرواق المستند إلى جدار المسجد الشرقي من الخارج، وكان يصعد إلى الباب عبر درج بعكس ما هو موجود حالياً.

أقسامه الرئيسية:

للجامع قبة لطيفة مع ثمانية أبواب تؤدي إلى المساكن والأسواق الشعبية، مما يدل على زخم الحياة الاقتصادية في مدينة بصرى عاصمة الأنباط والغساسنة، وصحن داخلي محاط بالأعمدة وأروقة مع مئذنة.



جاء بناؤه على شكل شبه منحرف بامتداد 36×34 متراً ومساحة ملحقة جانبية ليصبح 1842م². وقد بني على منهج الساحة المكشوفة في الوسط والأروقة المحيطة من الجهات الأربع، ويأخذ الضلع الأطول تجاه القبلة. وقد بلغ طول الساحة المكشوفة 16 متراً إلى الشرق والغرب، و13 متراً إلى الشمال والجنوب، تتوسطها الميضاة التي جاء شكلها على نمط حوض مربع طول ضلعه مترين، تتوسطه نافورة ماء، ويحيط بها عمود رخامي قطره 50 سم، وتاج من الطراز الدوري ارتفاعه مترين، في كل زاوية تخرج من الحوض صنابير مياه الوضوء لتسهيل في مجرى رخامي تحيط به كراسٍ للجلوس.

المئذنة: وجاءت في الزاوية الشمالية الشرقية من المسجد، على شكل مربع حيث جاء القسم السفلي على شكل قاعدة مربعة $4,80 \times 4,80$ م وحتى ارتفاع 6 أمتار ونفذ فيها مدخلان أحدهما يفتح على المسجد من الداخل والآخر من الخارج. ثم تتقلص من كل ضلع 60 سم حتى ارتفاع 18 متراً، ثم يقل طول كل ضلع مقدار خمسين سم، حتى طولها الكامل والبالغ 24 متراً¹.

أطلال جامع صلخد

تؤكد الكتابات الموجودة على المئذنة القائمة حالياً بمفردها على تشييد المئذنة ورواق المسجد عام 630هـ/1232-1233م من قبل عز الدين أيبك المعظمي، وهذا يدل على وجود جامع أقدم شهد على الأغلب توسعاً بإضافة جناح إليه، تماماً كما حدث لجامع بصرى المعاصر له.

والسبب في ذلك على ما يبدو هو محاولة استيعاب حاجات السكان المتزايدة، ولكننا لا نعرف شيئاً عن الجامع الأقدم، وبافتراض يمكن القول: إن الموقع القديم أعيد استخدامه بعد تأسيس القلعة من جديد في عام 466هـ/1073-1074م ونتيجة لذلك فلا بد أن تكون عدة عقود من الزمن قد انقضت قبل أن تتوسع المستوطنة المجاورة ويزداد عدد سكانها المسلمين، وهذا ما دعا لبناء جامع ضخم.

1 - مشاهدات ميدانية للكاتب، من عام 1995.

ويجب أن يكون هذا وكما يقول ميخائيل ماينكه قد حدث إما في فترة فخر الدولة كمشتكين التاجي حاكم بعلبك السابق والذي حكم صلخد من عام 1110 حتى عام وفاته 1131م، أو في عهد خلفه عز الدين أبي منصور كمشتكين الذي حكم بالإضافة إلى بصرى منطقة صلخد أيضاً حتى عام 1146م.

في قمة تطور مدينة صلخد، جرى توسيع بناء مسجدها العمري مع المئذنة عام 1232. ولم يبق من الجامع غير المئذنة اليوم وهي بالغة الجمال، ومثمثة الشكل، وذات علاقة بمآذن منطقة الفرات

على أية حال، فإن الكتابات الباقية تشير إلى تقدّم مدينة صلخد، تقدماً كبيراً في عهد عز الدين أبيك المعظمي الذي كان يحكم منطقة حاضرتها في صلخد وكان قد وصل بحكمه إلى واحات الأزرق في الجنوب، ومدينة أزرع في الشمال الغربي.

وفي قمة التطور الحضاري توسّع بناء المسجد مع المئذنة عام 1232م، وتحتل المئذنة الجزء الوحيد الذي لا يزال قائماً من

المسجد حتى الآن وتعد من أجمل المآذن الإسلامية الباقية، فشكلها مضلعٌ بقي منها ارتفاع 12م، وهي ذات صلة بالمآذن المثمثة في منطقة الفرات. وتشكّل مئذنة جامع مسكنة الكبير المشيدة بالأجر أحسن مثال معروف، شيدت هذه المئذنة عام 1210م إلا أنها تخالف مآذن الشمال السوري والشمال الرافدي¹.

فلها جذع مسدس الشكل K ولم يُعثر حتى الآن في العالم الإسلامي بكامله على مثيل مطابق لها².

والمثير للدهشة أيضاً الصلة الهندسية التي تربط هذا النموذج الهندسي بمعبّد بعلبك الروماني في لبنان المتميّز بصحنه المسدس الشكل المندمج في النظام الدفاعي للقلعة العائدة للعصور الوسطى، ولذلك بإمكاننا أن

1- الحواريات الأثرية العربية السورية، بقلم ميخائيل ماينكه، المجلد 43، عام 1997م.

2- مجلة الأسبوع، دمشق، العدد 83، تشرين الأول 1999م. مقال للكاتب).



نفترض على سبيل الاحتمال أن مخطط مؤذنة جامع صلخد المسدس الشكل مقتبس اقتباساً مباشراً من نماذج عمرانية كلاسيكية قديمة.

جامع أزرع

يقع الجامع في منطقة أثرية من مدينة أزرع يتوسط المسافة بين كنيسة مار إلياس ومار جرجس، رمزه على خريطة درعا الأثرية 017 ويقع ضمن الخط المطري 250 - 300 ملم، ويرتفع عن سطح البحر حوالي 594 م. ملكية الموقع وقف للأوقاف الإسلامية في محافظة درعا بموجب إخراج قيد نظامي، وهو مسجل لصالح دائرة آثار درعا بالقرار رقم 142/أ/ تاريخ 1968/10/21 م.

لمحة تاريخية

المهندس الألماني ميخائيل ماينكه قام بدراسة الجوامع الحورانية الكبيرة التي تعود إلى الفترات الإسلامية الأولى، وقال في وصف جامع أزرع: «هذا البناء هو أطلال جامع أزرع المركز الإداري لمنطقة اللجاة التي تبعد حوالي 45 كم شمال غربي بصرى. ويُعدُّ «جامع أزرع» مثلاً على المدرسة المحلية في هندسة عمارة المساجد، والجامع المذكور أكثر اتساعاً من جامع بصرى إذ تبلغ مساحته 33×47 م. وهو بالتأكيد أصغر من جامع درعا، ولا يُظهر هذا الجامع تأثيراً بأسلوب العمارة الدمشقية.

هذا ما يثير الاستغراب؛ إذ إن الجامع دشن - وفق ما نستخلصه من كتابه فيه - عام 651هـ/1253م؛ أي تماماً تاريخ جامع درعا نفسه، ومن قبل الأمير الناصر يوسف نفسه.

كان المصلّى (القبليّة) يتألف منذ البداية من ستة أجنحة بأعماق متفاوتة من 2,80 م إلى 3,20 م، ولم يبق منها قائماً إلا الجناحان الجنوبيان. وتشير النسب بشكل واضح إلى أن البناء بأكمله كان مصمماً لتكون سقوفه مستوية من ألواح الحجر البازلتية المتوفرة بسهولة. ومن الملامح العمرانية التي تمتّ بصلّة إلى عمارة العاصمة السورية لا يوجد

منها إلا زخارف المحراب المبنية بالحجرين الأسود والأبيض بالتناوب، فهذه النماذج الزخرفية الرائعة اكتمل تطورها في دمشق في العصر الأيوبي، أما بالنسبة لتأريخ البناء بأكمله فيفترض أنه يعود إلى العصور الوسطى. وعلى النقيض تماماً من جامعي بصرى ودرعا فإن زخارف جامع أزرع الثانوية تعكس تيار التطور الرئيس لعمارة سورية في القرون الوسطى؛ بينما التصميم العام يتبع النماذج التقليدية في حوران.

إن تقسيم المصلّى إلى ستة أجنحة في جامع أزرع يمكن أن يفهم على أنه تحوّل من ترتيب ثلاثي الأجنحة في جامع درعا إلى نموذج أسلوب الهندسة المعمارية في حوران. بقايا جامع كبير في كل من بصرى ودرعا وأزرع وصلخد - وإن كانت هذه البقايا لا تمثل إلا جزءاً من البناء على أقل تقدير - يوضح أنها ذروة نهضة حوران في العصور الوسطى عندما شهدت المنطقة ازدهاراً دراماتيكياً واقتصادياً¹.

وقد ذكر الأستاذ بركات الراضي في كتابه: (تاريخ آثار وتراث حوران) وأورد وصفاً دقيقاً لأقسامه ومواصفاته المعمارية.

للجامع قيمة كبيرة لدى أهالي مدينة أزرع كونه يجثم وسط المدينة القديمة وتحيطه الكنائس والبيوت الجميلة من كل الجهات، وقد تعرّض لمجموعة كبيرة من أعمال الهدم والتخريب أسقطت ثلاثة صفوف من أعمدة الحرم بشكل كامل مع إعادة بناء الجدار الشمالي للصحن وتدمير المئذنة الواقعة في الجهة الشمالية الغربية من البناء، قبل أكثر من ستين عاماً وما حصل من نقل وسرقة أجمل عناصره لإشادة البيوت الحديثة منها.

استخدم الجزء الجنوبي منه منذ حوالى قرن من الزمن كمدرسة عامرة لتعليم أبناء القرية أصول الكتابة وتحفيظ القرآن، وذلك على يد الشيخ الجليل

1 - الحوليات الأثرية العربية السورية، بقلم ميخائيل ماينكه، المجلد 43 عام 1997م.



سليم عقيل الشوحة (1883-1982م) الذي كان إمام البلدة الوحيد حيث يقيم فيه الصلوات الخمس. وما يعرف عنه أنه لم يكن ليوفر جهداً ممكناً تجاه ترميمه وإعادة الحياة له، وخاصةً جداره الشرقي الذي بقي شاهداً على ذلك.

الأقسام الرئيسية

الحرم: مكان إقامة الصلاة ويحجز القسم الجنوبي من البناء، ووفقاً لدراسة وحيدة شهدها الجامع قام بها المهندس الألماني ميخائيل ماينكه. تفيد بأنه مؤلف من خمسة أجنحة تقطعها صفوف من الأعمدة التي تحمل أقواساً نصف دائرية كبيرة جهة شرقي غرب، وسقف حجري قوامه الربدان والميازين.

الباب الرئيس يقع في الجهة الغربية، يقوم فوقه قوس نصف دائري وساكن يحمل حجراً مربعاً، فيه عدد من الدوائر المفتوحة. إلى الجنوب منه يقوم باب آخر مردوم ولا تظهر منه إلا مساحة قليلة.

الجدار الجنوبي فيه باب من الشرق عرضه 119 سم، ويظهر من ارتفاعه 140 سم (ارتفاع حالي) وباتجاه الغرب نافذة عرضها متر واحد وارتفاعها متر ونصف. مغلقة بالحجارة، ثم يقوم المحراب الرئيس وقوامه حنية مقببة مشكلة وفق طراز الأبلق أي تناوب الحجرين الأبيض والأسود، عرضها 167 سم وارتفاعها يزيد على مترين، تعلوها نافذة عالية جداً.

وللغرب من هذا المحراب تقوم نافذة بعرض متر واحد، ثم محراب آخر عرضه 140 سم بطريقة متقنة، سقفه مستوٍ، يوجد فوقه انهيان كبير للجدار وجزء من السقف مع وجود خمس نوافذ علوية قريبة من السقف.

تنطلق صفوف الأعمدة والقناطر وأساسات أخرى مهدمة من الجدار الشرقي جنوباً مع فقدان السقف بشكل كامل وملاحظة ست نوافذ. أما الجدار الشمالي فهو مهدم بالكامل ولا يظهر منه أي شيء.

الصحن: هو القسم الشمالي من البناء ويمثل الفناء المكشوف كما الحال في جامع درعا والجامع الأموي في دمشق، والعديد من الجوامع

الإسلامية المبنية وفق هذا الطراز. لكن وللأسف فإن أعمالاً كثيرة قوامها التخريب والإهمال قد طالته وأتت على معظم أجزائه وما بقي منه سوى جزء صغير من الجدار الشرقي. وكتلة معادة البناء في الشمال عبارة عن قنطرتين ونصف تمّ إغلاقها بعد فترة لاحقة في ما أطاح الطريق الحديث الواقع في الغرب الجزء الغربي منها.

ويمكن أن نورد عن هذه الكتلة بعض المعلومات بناءً على ما بقي منها، فالجزء الشرقي منها عبارة عن جدار مصمت لا نوافذ فيه ولا أبواب بطول 10م تقريباً، بطريقة بنائية غير متقنة مع مجموعة ميازين بعضها قديم وبعضها حديث، تخص الرواق الأمامي الذي يفترض أن يوجد على كامل جهات الصحن تماماً كجامع درعا.

بعد ذلك توجد قنطرة نصف دائرية تقوم على قواعد هندسية، وواحدة للغرب منها بالحجم نفسه والمواصفات، وثالثة لم يبق إلا نصفها جراء مرور طريق حديث.

تعرضت هذه الكتلة لعدة إضافات في فترات لاحقة منها إغلاق القناطر وتشكيل باب لكل واحدة، منها الأول من الشرق عرضه 103سم بارتفاع راهن 185سم، ودرج من درجتين مع وضع جدار حديث للغاية.

في منتصف هذه الكتلة من الداخل توجد قنطرتان قديمتان بعض الشيء شرق غرب، قد تكونان من الفترة البيزنطية تحملان سقفاً من الميازين والربد مع وجود مونة كلسية بين العناصر.

قواعد القناطر متقنة، وربما تكون هذه القاعدة قد استخدمت كإسطبل في الفترة الأخيرة، والدليل وجود معالف وكميات من التبن تنتشر فيه.

القسم الغربي من هذه الكتلة لا يختلف عن الشرقي؛ لكنه يضم عناصر مزخرفة وفنية في غاية الأهمية. منها حجر على شكل تاج يضم الجانب الجنوبي منه شكل صدفي كذلك الشرقي. أما الشمالي فيضم وردة كبيرة مع أوراق وشريطين نصف دائريين من الأشكال الهندسية، أما الغربي فتغطيه مجموعة حجارة؛ لكننا استطعنا مشاهدة شكل صدفي في غاية الجمال.



طراز التاج بيزنطي وربما يتبع لدير أو كنيسة مسيحية، ويوجد في هذه الكتلة أربع نوافذ موزعة على الجدارين الشمالي والغربي، عرض هذه الكتلة من الداخل شمال - جنوب خمسة أمتار وثلاثين سم، فيها طبقة من الكلس وحجر الخفان بعرض حوالي 70 سم فوق الريدان كسقف عازل مع كميات من الأتربة.

المئذنة:

لم يبق منها شيء يدل على شكلها القديم، لكن يعتقد بأنها في الزاوية الشمالية الغربية من الصحن كالتي توجد في جامع درعا. وحدثنا بعض الأشخاص من أبناء المنطقة والذين يذكرونها جيداً منذ طفولتهم، أنها مربعة الشكل من الأسفل ترتفع لحوالي 37 م. مع وجود 13 جرساً فيها وعدد من النوافذ والفتحات، فيها ممرات عند قاعدتها يجب أن تكون مبنية بكاملها من الحجر، ولا ندري أين ذهبت حجارتها قد تكون لأبنية سكنية أخرى وربما للكنائس المجاورة.

إن مرور الطريق الحديث من غرب الجامع قد أخفى معالمها بالكامل، ويقال بأن الطريق الموصل لكنيسة مار جاورجيوس كان مرصوفاً بالحجر¹.

أعمال التنقيب الأثري

شهد الجامع عمليات تنقيب أثرية خاصة في الجزء الجنوبي منه، وذلك قبل أكثر من عشر سنوات، ولم توثق أو تنشر تلك الأعمال ولا ندري ما هي النتائج التي وصلت إليها، وأُحِق بها أسوار بيتونية وحديدية من الجهتين الغربية والشرقية.

تُوع العمل التنقيبي فيه مطلع آب من عام 2005 بغية إزالة غبار الإهمال عن هذا الصرح الديني المقدس، ومحاولة كشف كامل أجزائه التي لا تزال تترجح تحت ركام الأنقاض والأتربة منذ مئات السنين وتنفيذ أهم

1- يقال بأن بعض الأشخاص في ثلاثينات القرن الماضي وبالتواطؤ مع القوات الفرنسية المحتلة قاموا بهدم المئذنة بالحبال بحجة وجود دفائن ذهبية تحتها.

خطوة تجاهه وهي عملية الترميم وإعادة الحياة له، فلا يليق ببناء كهذه أن يُنسى كل هذا النسيان.

نفذت بعثة آثارية وطنية تابعة لدائرة آثار درعا موسمها الأول للتنقيب عن الآثار في موقع الجامع العمري الكبير.

كان من الضروري بداية وكأول خطوة ضرورية تنظيف الموقع العام للبناء من الأوساخ التي كانت تظمره، تم ترحيل الحجارة الغشيمة المجلوبة إليه من مناطق أخرى. حيث تشكل ما ارتفاعه متر ونصف من مستوى أرضية الصحن المفترضة، فتم ذلك من قبل المنقبين الوطنيين الذين تمكنوا من نقل آلاف العناصر الحجرية الغشيمة عن طريق العمل اليدوي إلى مكان قريب مؤتمن لیتسنى إزالة الأتربة من تحتها وإجراء الأسبار والحفريات الضرورية.

**إن وجود ورشة عمل خبيرة
ومدرية وحضور عشرات
المتطوعين من أبناء مدينة
أزرع ومن المدن والقرى
والمناطق المحيطة بها،
أتاح فرصة كشف أكبر
مساحات ممكنة، وتنفيذ
مجموعة أسبار في معظم
مناطق الجامع**

ومما لا شك فيه أن عملية سبر الأرضيات ومعرفة مستوياتها وكشف المخطط الأصلي للجامع كانت من أولويات عملنا للحصول على النتائج المتوخاة لفهم واقعه المعماري والتاريخي وتسهيل مهمة شعبة الهندسة التي تتأهب للبدء بأعمال ترميمه وإعادة بنائه.

إن وجود ورشة عمل خبيرة ومدرية وتواجد عشرات المتطوعين من أبناء مدينة أزرع ومن المدن والقرى والمناطق المحيطة بها، والغيورين على آثار وتراث بلدهم أتاح فرصة

كشف أكبر مساحات ممكنة، وتنفيذ مجموعة أسبار في معظم مناطق الجامع. أدت نتائجها للحصول على معطيات مثيرة غيرت وبشكل كامل التصورات المعمارية والتاريخية لهذا الصرح العظيم.

وشهد الجامع أعمال ترميم في السنتين اللاحقتين: 2006 - 2007م، أعطتا نتائج في غاية الأهمية.



معطيات ونتائج:

- 1- إن الجامع العمري في مدينة أزرع هو من أقدم جوامع العالمين العربي والإسلامي وهو واحد من أربعة تحمل اسم الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والثلاثة الباقية موجودة في مدن: درعا بصرى صلخد.
 - 2- كان الجامع يخضع باستمرار لعمليات ترميم وتجديد وإعادة بناء عبر فترات التاريخ كافة، الأمر الذي يعني بالضرورة كثافة السكن البشري في مدينة أزرع والحاجة الملحة باستمرار لمساحات إضافية تستوعب المصلين.
 - 3- حجم الدمار الهائل الذي تعرض له هذا الصرح يرجح أن زلزالاً عنيفاً قد دمره تماماً وحطم كل ما فيه مع مراعاة أن الجزء الجنوبي منه قد أعيد بناؤه ليتم استثماره كجامع في فترة متأخرة لم تكن فيها مدينة أزرع تضم كثافة بشرية نتيجة الظروف والمتغيرات والأحوال. أو أن هجوماً كبيراً وعملية تخريب منظمة قد شهدها لكن دلائل ذلك ليست بالحاضرة.
 - 4- هُجر الجامع تماماً منذ ما يزيد على مائتي سنة، وتم نقل وسرقة معظم حجراته وعناصره المعمارية، وقد مرّ شارع وسطه من الغرب إلى الشرق، ودُمرت وهُدمت مئذنته الرشيقة في ثلاثينات القرن الماضي في فترة الاحتلال الفرنسي، والسبب البحث عن الكنوز.
 - 5- في حال أكدت أعمال التنقيب الأثري وأعمال الكشف والتعزيل والترميم مخططه المفترض الذي نتوقع أن يكون قوامه: حرم بعشرة أجنحة تقطعها صفوف الأعمدة التي تحمل القناطر نصف الدائرية وسقف حجري كبير، إضافة إلى رواق أمامي من الشمال عبارة عن مجموعة قناطر.
- ورواق أمامي مفترض شمال - جنوب يتقدم الضلع الغربي للجامع ويحوي باباً رئيساً يربط البناء بالمدينة، وعشرة أبواب كل منها يخص جناحاً واحداً في الضلع الشرقي للرواق. ومئذنة رشيقة مربعة الشكل كانت تقوم في

الزاوية الشمالية الغربية للبناء. مع وجود نوافذ وأبواب وعشرات العناصر المعمارية الفنية، كل هذا يجعل من مخطط الجامع طرازاً معمارياً فريداً¹.

جامع قرية مسيكة:

تعدّ مسيكة من أبرز حواضر اللّجاة الصخرية الوعرة، هناك جنوب دمشق بين درعا والسويداء، وتضم أطلالاً لمدينة في غاية الأهمية ترقى إلى العصرين الكلاسيكي والإسلامي، على أن المسجد العمري هو أهم صروحها الباقية.

يقع جنوب المدينة ولا توجد أي دراسات تشير إلى تاريخ بنائه، سوى أن زيارتنا للمكان عام 2004م أعطتنا معطيات بأن البناء في غاية الأهمية، حيث يشبه إلى حدّ كبير جامع أزرع من حيث طريقة البناء ونوعية العناصر المشاد منها؛ لكنه أصغر إذ جاء بناؤه من صفيين من القناطر المتوازية غرب - شرق، مع بقايا جدار قبلي فيه محراب متطاوّل، وسور شمالي متهدم بعض الشيء، مع عدم ملاحظتنا للمئذنة بسبب انهيار قسم كبير وتراكم لعناصر حجرية كانت خاصة بالبناء وأخرى من أبنية قريبة منه.

ربما حالته غير الجيدة هذه بسبب هجر السكان لمدينة مسيكة القديمة، وقيامهم بإشادة بلدة حديثة إلى الشرق منها، مزودة بكل وسائل الحياة الحديثة.

كذلك فإنّ وعورة المكان منعت مديرية الآثار من العمل على إقامة مشاريع إحياء لهذه المدينة من خلال ترميم صروحها العريقة.

1 - آفاق الثقافة والتراث، دبي، 2007م.

